اغلاط المولدين

(تابع لما قبل)

واذا تفقّدت الفاظ اللغة وجدت جانباً كبيراً منها اصلهُ ما ذُكِر وان لم يمكن ردّ كل لفظٍ الى قائلهِ الاول لان ذلك مما حال بيننا وبينهُ كرور الايام. يدلك على ذلك كثرة الصيغ من المادَّة الواحدة لمعنًى واحد مما لا تدعو اليهِ حاجة الاستعمال ولا يستفاد منهُ اتّساعٌ في التعبير عن المعاني بل ربما أدّى الى صعوبة مأخذ اللغة لما ينشأ عنهُ من اضطراب اقيستها بسبب اختلاط المقيس بالشاذّ على ما مرّت بك مثلهُ. وحسبك أن للعبد عشرة جموع هي أَعبُد وعَبِيد وعِباد وعُبْد بضمتين. وعُبُدان بالضم والكسر وعِبِدّان بكسرتين وتشديد الدال وعِبِدَّى وعِبِدّآء كذلك بالقصر والمدّ ومَعبَدة ومعبودآء . واكثر هذه الجموع لا يقاس عليهِ ومنها ما لا تجد لهُ نظيراً في غير هذا الحرف ولذلك جعلوا ما شذّ منها اسماً للجمع لا جموعاً

ومهما يكن من ذلك كلهِ فان هذه الالفاظ وامثالها قد مضت على وجهها وأقرّها استعمال العرب لها فلم يبقَ الا ان نستعملها كما سُمِعت عنهم لكن لا بدّ لنا عند استعمال اللفظة من التثبُّت فيها فان صحّ انها مما استعملوهُ في كلامهم استعملناها بغير نكير ولا بحث والا رجعنا بها الى القياس فان وافقتهُ فذاك والا نبذناها الى ان يتبين ثبَتها من السماع

ومعلومٌ أن اللغة بعد ظهور الاسلام واختلاط العرب بالعجم لم تلبث

الاّ زمناً قصيراً حتى سرى اليها الفساد كما يدلّك على ذلك ما ذكروهُ من سبب وضع علم النحو على يد ابي الاسود الدُؤَليّ وقد كان ابو الاسود من اهل الصدر الاول للاسلام ولعلّ وضعهُ للنحو كان سنة ثمانٍ وثلاثين او سنة تسع وثلاثين للهجرة وهي السنة التي قدم فيها زيادٌ البصرة فقد جآء في احدى الروايتين ان ابا الاسود جآء زياداً بالبصرة فقال لهُ اصلح الله الامير اني ارى العرب قد خالطت هـذه الاعاجم وتغيرت السنتهم افتأذن لي ان اضع لهم علماً يقيمون بهِ كلامهم . قال لا . ثم جآء زياداً رجلٌ فقال مات ابانا وخلّف بنون . فقال زياد مات ابانا وخلّف بنون . . ردّوا اليّ ابا الأسود فرُدّ اليهِ فقال ضَعْ للناس ما نهيتك عنهُ فوضع لهم النحو . اه . ولا شك ان هذا لم يكن اول خطإٍ جرى على السنتهم بل أحرِ باللغة اذا كانت قد بلغت الى هذا الحدّ من الفساد حتى تنكّرت صُوَر الاعراب فيها ولم يعد يميَّز بين المرفوع والمنصوب ان يكون قد تطرّق الفساد قبل ذلك الى معاني ابنيتها واحكام صوغها واشتقاقها مما هو اخفى سرًّا من الاعراب ولا يطّرد اطّراد الاحكام النحوية . ولا بد مع ذلك ان يكون قد عرض على اوضاعها كثيرٌ من التحريف والتبديل واحالة بعض الالفاظ عن معانيها على ما يقرب مما نراهُ لعهدنا الحالي وان تفاوت الامر في القلة والكثرة لان المرجع في كلا الحالين الى زوال ملكة اللغة من الالسنة وفقد القانون الذي تجري عليهِ ولذلك منع علمآء اللغة والنحو الاحتجاج بكلام المولّدين مهما كانت منزلتهم من الفصاحة لانهم مظنة للخطآء واللحن باستدراج العامة لانهم نشأوا بينها وتناولوا كلامها قبل الفصيح

قال الشيخ عبد القادر البغدادي في كتابهِ خزانة الادب على شواهد شرح الكافية قال الاندلسيّ في شرح بديعية رفيقهِ ابن جابر علوم الادب ستة وهي الصرف والنحو واللغة والمعاني والبيان والبديع . والثلاثة الاول لا يُستشهد عليها الا بكلام العرب دون الثلاثة الاخيرة فانهُ يُستشهَد فيها بكلام غيرهم من المولدين لانها راجعة الى المعاني ولا فرق في ذلك بين العرب وغيرهم ولذلك قَبِل من اهل هذا الفنّ الاستشهاد بكلام البحتري وابي تمّام وابي الطيّب وهلمَّ جرًّا . قال واقول الكلام الذي يُستشهَد بهِ نوعان شعرٌ وغيرهُ فقائل الاول قد قسمهُ العلمآء على طبقاتٍ اربع الطبقة الاولى الشعرآء الجاهليون وهم قبل الاسلام كامرئ القيس والاعشى والثانيـة المخضرَمون وهم الذين ادركوا الجاهلية والاسلام كلبيد وحسّان والثالثة المتقدمون ويقال لهم الاسلاميون وهم الذين كانوا في صدر الاسلام كجرير والفرزدق والرابعة المولَّدون ويقال لهم المحدَثون وهم مَن بعدهم الى زماننا كبَشّار بن بُرْد وأبي نوَاس . فالطبقتان الأُولَيان يُستشهَد بشعرهما اجماعاً واما الثالثة فالصحيح صحـة الاستشهاد (لعل الصواب عدم صحة الاستشهاد) بكلامها وقد كان ابو عمرو بن العلآء وعبد الله بن ابي اسحق والحسن البصريّ وعبد الله بن شُبرُمة يحتّجون الفرزدق والكُمَيت وذا الرُمّة واضرابهم وكانوا يعدّونهم من المولَّدين لانهم كانوا في عصرهم . واما الرابعة فالصحيح انهُ لا يُحتجّ بكلامها مطلقاً وقيل يُحتجّ بكلام من يوثق بهِ منهم واختارهُ الزمخشري وتبعهُ الشارح المحقق (اي الرضي) فانهُ استشهد بشعر ابي تمّام في عدة مواضع من هذا الشرح واستشهد الزمخشري

ايضاً في تفسير اوائل البقرة من الكشاف ببيتٍ من شعرهِ وقال وهو وان كان مُحدَثاً لا يُستشهَد بشعرهِ في اللغة فهو من علمآء العربية فاجعل ما يقولهُ بمنزلة ما يرويهِ . واما قائل الثاني (اي غير الشعر) فهو إمّا ربنّا تبارك وتعالى فكلامهُ عزّ اسمهُ افصح كلامٍ وابلغهُ . . وإمّا احد الطبقات الثلاث الاولى من طبقات الشعرآء التي قدّمناها . وأمّا الاستدلال بحديث النبي صلى الله عليهِ وسلم فقد جوّزهُ ابن مالك ومنعهُ ابن الضائع وابو حيّان وسندهما امران احدهما ان الاحاديث لم تُنقَل كما سُمِعَت من النبيّ صلى الله عليهِ وسلم وانما رُوِيت بالمعنى وثانيهما أن ائمة النحو المتقدمين من المِصْرَين لم يحتجّوا بشيءٍ منهُ . ورُدّ الاول على تقدير تسليمهِ بان النقل بالمعنى انما كان في الصدر الاول قبل تدوينهِ في الكتب وقبل فساد اللغة وغايتهُ تبديل لفظٍ بلفظٍ يصحّ الاحتجاج بهِ . . ورُدّ الثاني بانهُ لا يلزم من عدم استدلالهم بالحديث عدم صحة الاستدلال بهِ والصواب جواز الاحتجاج بالحديث للنحويّ في ضبط الفاظهِ ويلحق بهِ ما رُوِي عن الصحابة واهل البيت . وقال السيوطي في الاقتراح واما كلامهُ صلى الله عليهِ وسلم فيُستدَلّ منهُ بما ثبت انهُ قالهُ على اللفظ المرويّ وذلك نادرٌ جدًّا انما يوجد في الاحاديث القصار على قلّةٍ ايضاً فان غالب الاحاديث مرويٌّ بالمعنى وقد تداولتها الاعاجم والمولّدون قبل تدوينها فرووها بما ادّت اليهِ عبارتهم فزادوا ونقصوا وقدّموا وأخّروا وابدلوا الفاظاً بالفاظ ولهذا ترى الحديث الواحد في القصة الواحدة مرويًّا على اوجهٍ شتى بعباراتٍ مختلفة . . وقال ابو حيّان في شرح التسهيل قد اكثر المصنف من الاستدلال بما وقع في

الاحاديث على اثبات القواعد الكلية في لسان العرب وما رأيت احداً من المتقدمين والمتأخرين سلك هذه الطريقة.. وقد جرى الكلام في ذلك مع بعض المتأخرين الاذكيآء فقال انما ذكر العلمآء ذلك لعدم وثوقهم ان ذلك لفظ الرسول صلى الله عليهِ وسلم.. وانما كان كذلك لامرين احدهما ان الرواة جوّزوا النقل بالمعنى .. وقد قال سُفيان الثوري ان قلت لكم اني احدثكم كما سمعت فلا تصدّقوني انما هو المعنى. والامر الثاني انهُ وقع اللحن كثيراً فيما رُوي من الحديث لان كثيراً من الرواة كانوا غير عربِ بالطبع ويتعلمون لسان العرب بصناعة النحو فوقع اللحن في كلامهم وهم لا يعلمون ودخل في كلامهم وروايتهم غير الفصيح من لسان العرب . انتهى باختصار

قلنا ويلحق بذلك ما رُوِي من خُطَب الامام عليّ التي جمعها السيد الرضي في كتاب نهج البلاغة وهذه ايضاً لم يثبت انهـا لفظ الامام فقد جآء في خطبة جامع الكتاب ما نصّهُ « وربما جآء في أثنآء هذا الاختيار اللفظ المردَّد والمعنى المكرَّر والعذر في ذلك أن روايات كلامهِ تختلف اختلافاً شديداً فربما اتفق الكلام المختار في روايةٍ فنُقِل على وجههِ ثم وُجِد بعد ذلك في روايةٍ اخرى موضوعاً غير وضعهِ الاول اما بزيادةِ مختارة او بلفظٍ احسن عبارةً فتقتضي الحال ان يُعاد استظهاراً للاختيار وغيرةً على عقائل الكلام » . انتهى بحرفهِ . بل جآء في ترجمة ابن خلكان للشريف المرتضى اخي الشريف الرضي ما نصُّهُ «وقد اختلف الناس في كتاب نهج البلاغة المجموع من كلام الامام عليّ بن ابي طالب

رضي الله عنهُ هل هو جمعهُ ام جمع اخيهِ الرضي وقد قيل انهُ ليس من كلام عليّ وانما الذي جمعهُ ونسبهُ اليهِ هو الذي وضعهُ والله اعلم

(ستأتي البقية)

حديقة السوسن

(تتمة)

— ١٥ —

ليت شعري ماذا يريد الانسان من دنياهُ رجلا كان ام امرأة أليس الراحة والهنآء يجنيهما من رياض الدعة والسلام بيد المجد والغنى . وهل يمكن تحصيل هذه المعدودات ما دام الجنسان يتسابقان ولا يترافقان ويختلفان ولا يأتلفان بل يتحاسدان ولا يتوافدان . كلاّ ثم كلاّ

لذلك قلنا ولا نزال نقول ان الرجل عليهِ ان يكون رجلاً لا يتأنث والمرأة عليها ان تدوم انثى لا تتذكر تاركين بين نوعية الجنسين حدًّا فاصلاً لا يحاول احدهما ان يتعدّاهُ . وليقف كلٌّ منهما في موقفهِ الذي اوجدتهُ فيهِ الطبيعة لا يتجاوزهُ ناظراً كلٌّ منهما الى الآخر نظر المتمم لهُ المكمل نقصهُ عالماً ان الانسان الكامل هو رجلٌ وامرأةٌ لا احدهما دون الآخر اذ كلٌّ منهما ناقصٌ بذاتهِ يقصر عن ان يؤلف انساناً مستقلاً . وعليهِ فكل ما هو للنسآء هو للرجال وكل ما هو للرجال هو للنسآء فعلامَ تحاول المرأة ان تجهد نفسها لتسلب شيئاً من وظائف الرجل وعلامَ يدأب الرجل ليختلس بعضاً من حقوق المرأة . لعمر الله ان نوع الانسان ما زال